الفصل الثالث

النظريات في نشأة اللغة

أصل الانسان ، ونشأة لغته ، أمر يثير الخيال ، ويدفع العقل الى التفكير . ولذا كان البحث عن (أصل اللغة الانسانية الأولى) من أقدم المشاكل الفكرية التى جابهت الباحثين والمفكرين .

وكلما ازدادت معرفتنا بتاريخ الانسان ، فيما قبل التاريخ المدون — كما حدث فى قرننا الأخير — كلما تطلعنا — فى اصرار — الى كشف حجب الأستار والأسرار التى تحجب عنا معرفة أصل اللغة ، وتحول الانسان من حيوان لبكم الى حيوان ناطق ، لأن أصل اللغة وثيق الاتصال بأصل الانسان ذاته وتطور مخه ، وتطوره الاجتماعى .

وعلى هذا فقضية اللغة وأصل نشأتها ليست قضية لغوية فحسب ، ولا تدخل فى نطاق (علم اللغة) وحده ، وانما هى داخلة فى نطاق (البسيكولوجيا ، والانثربولوجيا ، والفلسفة) .

ولذلك كانت اللغة وجهازها — عند الانسان — أمرا عجيبا مثيرا غاية فى التعقيد والغرابة . ومن ثم عسر تعريفها ، تعريفا جامعا مانعا ، كما تعسرت الأجابة عن ماهيتها ، وأصلها ، وكيف تدرجت ... الخ .

ونحن نعرف سلفا أن العلم اليقينى لا يعترف بشىء اسمه الحدس والخيال ، كما لا تدخل الغيبيات فى تجربته ، إلا اذا كانت افتراضات قيم البرهان ، حين يصمت التاريخ .

وقد نشط العلماء والفلاسفة ، الى الاجابة على ذلك التساؤل المحير ، ووجدوا أن اللغة — فى أول أمرها — لم تخضع للمنطق والعقل ، حيث لم يكن — ثمت — منطق ولا عقل ، وانما دلت الشواهد الأولية انها على انها

كانت وليدة فوضى الوضع الارتجالى القديم ، قبل أن تخضع للفكر والمنطق والوضع النظامى ، تمشيا مع رقى الانسان .

وكان الغرض منها أن تعبر عن الغرائز والعواطف ، ثم للغناء والمتعة ، ثم أصبحت ذات أهداف فى التعبير والتفاهم وايصال المعانى .

ولم يقتصر البحث فى (أصل اللغة) على فترة معينة ، بل امتد حتى شمل فترة ما قبل الميلاد ، الى العصر الحديث ، وحتى لا يدور البحث ــ فى هذا الجانب ــ فى حلقة مفرغة ، بعد كثرة القول وتعدد النظريات ، نادت الجمعية اللغوية الفرنسية بقصر الكلام فى الموضوع الى هذا الحد . بل ودعا كثير من الباحثين المعاصرين الى عدم الاشتغال به البتة ، لأنه أصبح غير ذى موضوع ولا مفيد . وباعتبار أن احداثها كانت فيما قبل التاريخ .

غير انا نقول : بأن دراستها ضرورة منهجية لا ينبغى تجاهلها ، كما انها مدخل طبيعى لدراسة هذه الظاهرة العجيبة ، وان كان أمرا يضرب فى ميتافيزيقا التاريخ وبخاصة وان التخيل والافتراض هنا لهما سند من الواقع ، ولم ينطلقا من فراغ ، بل لهما واقع عملى وظاهرة ملموسة .

ويجدر بنا أن نلم بايجاز ببعض هذه النظريات التى حاولت كشف أصل اللغة وكنهها ، استكمالا للمنهج ، واستعراضا لتفكير القدماء ، وتبيانا لفضل علمائنا القدامى الذين اسهموا بسهم وافر فى الحضارة والتاريخ ، ولم يكونوا عجزة ، ولا عيالا على غيرهم كما لم يكونوا نقلة بريد ، كما يرميهم خصومهم :

أولا ــ نظرية الالهام والوحى والتوقيف :

اى أن الله الخالق أوحى الى الانسان الأول وأوقفه على أسماء الأشياء ــ بكل اللغات ــ مباشرة أو بواسطة ، بعد أن علمه النطق (١) .

وهذه النظرية قديمة قال بها الفيلسوف اليونانى (هيراقليط) (٤٨٠ ق . م) (٢) . والفيلسوف الاغريقى (هيراكليت ٤٨٠ ق . م) .

ويرى (افلاطون) أن اللغة ظاهرة طبيعية وأن الكلمات وأصواتها جزء لا يتجزأ من المعنى بينما يرى ارسطو انها ظاهرة اجتماعية ، وأن

---

(١) الصاحبى ٥ ــ ٢ (٢) فى علم اللغة العام ص ٧٠

أصواتها رموز اصطلاحية ، لا علاقة طبيعية أو مباشرة لها بالمعانى . فأفلاطون مع هذه النظرية وارسطو مع الآتية .

ولها اشارات فى الأديان ــ كدليل نقلى ــ ففى التوراة : « والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول ، وجميع طيور السماء ، ثم عرضها على آدم ، ليرى كيف يسميها ، وليحمل كل منها الاسم الذى يضعه له الانسان ، فوضع آدم اسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ، ولطيور السماء ، ودوابه الحقول » .. (١) .

واستند علماء المسلمين الى قوله تعالى : « **وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة** » (٢) .

وارتضى هذه النظرية :

(أ) ابو عثمان الجاحظ (٢٥٥ هـ) حيث قرر أن الله سبحانه انطق نبيه اسماعيل بالعربية ، دون سابق تمهيد أو تعليم ، يقول : « وقد جعل الله اسماعيل ــ وهو ابن أعجمين ــ عربيا ، لأن الله لما فتق لسانه بالعربية المبنية على غير التلقين والترتيب ، وفطره على الفصاحة العجيبة ، على غير النشؤ والتمرين ، وسلخ طباعه من طبائع العجم ، ونقل الى بدنه تلك الأجزاء ، وركبه اختراعا على ذلك التركيب ، وسواه تلك التسوية ، وصاغه تلك الصيغة . ثم حمـــاه من طبائعهم ، ومنحـــه من أخلاقهم وشمائلهم . وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمهـــا واسناها ، واشرفها وأعلاها وجعل ذلك برهانا على رسالته ، ودليلا على نبوته ، وصار احق بهذا النسب وأولى بشرف ذلك الحسب » (٣)

(ب) ونادى بهذه النظرية أيضا : ابو على الفارسى (٣٧٧ هـ) أستاذ ابن جنى .

(ج) وارتضاها ابو الحسن أحمد بن فارس الرازى (٣٩٥ هـ) ، واتخذ موقف الدفاع عنها دائما .

---

(١) سفر التكوين ــ الاصحاح الثانى ــ الفقرة ١٩ .
(٢) البقرة : ٣١ .
(٣) فى علم اللغة العام ص ٢٩ ــ نقلا عن مخطوطة

(د) ومال اليها العلامة : ابو الفتح عثمان بن جني (٣٩٥ هـ) ، غير انه متردد بين الالهام والاصطلاح ، يقول : « واعلم — فيما بعد — أننى على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضوع ، فاجد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لى ، مختلفة جهات التغول على فكرى :

وذلك أننى اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة ، الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة والارهاف والرقة ، ما يملك على جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحـر .

فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله ، ومنه ما حذوته على أمثلتهم ، فعرفت بتتابعه وانقياده ، وبعد مراميه وامداده ، صحة ما وفقوا لتقديمه منه ، ولطف ما اسعدوا به ، وفرق لهم عنه ... وانضاف الى ذلك وارد الأخبار المأثورة ، بأنها من عند الله جل وعـز ، فقوى فى نفسى اعتقاد كونها توقيفا من الله سبحانه ، وانها وحى » . (١) على أننا سنرى ابن جنى بعدئذ يحمل لواء المعارضة لهذه النظرية .

فابن جنى كان يرى — فى أول الأمر — أن أكثر اهل النظر على ان اصل اللغة ، انما هو تواضع واصطلاح ، لا وحى وتوقيف ، ثم يقول : الا أن أبا على — يقصد أستاذه أبا على الفارسى — قال لى يوما : هى من عند الله تعالى ، واحتج بقوله سبحانه : « **وعلم آدم الأسماء كلها** » (٢) . فقوى ذلك الاعتقاد فى نفس ابن جنى .

وما زالت طائفة فى العصور الحديثة ، تذهب الى هذا الرأى كالفيلسوف الفرنسى (دوبانالد) ، من علماء القرن التاسع عشر ، والأب (فرانسوا لامى) (١٧١١ م) فى كتابه (فن الكلام) (٣) .

وتوجه النقد لهذه النظرية :

اذ ما فائدة أن يتعلم الانسان الأول كل اللغات ؟ وأى عبقرية تتيح له ذلك ؟

---

(١) الخصائص ١/٤٠ — ٤٦

(٢) المصدر السابق ، وانظر : فقه اللغة العربية د . نجا — ص ١٥

(٣) نشأة اللغة عند الانسان والطفل ص ٢٥

ولماذا تعليم الأسماء دون غيرها من أجزاء الكلام ؟ (اللهم الا اذا قلنا : ان الأسماء بمعنى الأعلام ، التى يمكن أن تتطور الى ألفاظ عامة ذوات معنى) .

على أن فقرة التوراة تشير الى ان آدم هو الواضع للتسمية .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى : « **وعلم آدم** » : اى اقدره سبحانه على أن يضع الأسماء للمسميات ، فالواضع لها هو الانسان بتوفيق الله تعالى .

ومن شاء مزيدا من البحث فى هذا المقام ، فليراجع المزهر للسيوطى ، ففيه الشيء الكثير للمستزيد .

وعلى كل فهذه النظرية كانت اتجاها دينيا ، ربطت خلق الانسان على النمط البديع بخلق اللغة الفذة ، وادى ذلك الاتجاه الى اتجاه آخر فلسفى حاول أن يضع نظريات اخرى . على طريق يتلمس الأسباب والعلل ، للوصول الى الصواب على أسس منهجية .

ثانيا ــ نظرية الاتفاق والمواضعة والاصطلاح :

وتقضى هذه النظرية بأن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق ، وارتجال الفاظها .

ومال كثير من العلماء والمفكرين الى هذه النظرية ، كأرسطو ، والمعتزلة ، والأخفش الأوسط : أبو الحسن سعيد بن مسعدة (٢١١ هـ) ، وقال بها ابن جنى (١) قبل أن يرى أن اللغة وحى والهام ، حين رآها مذهب استاذه الفارسى . وقال بها من المحدثين (آدم سميث) الانجليزى .

وسبق أن قلنا : ان (ارسطو) يرى أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، وان اصواتها رموز اصطلاحية : لا علاقة طبيعية او مباشرة لها بالمعانى .

ويرسم ابن جنى صورة لكيفية بناء اللغة وارتجالها ، على هذا النحو يقول ، وذلك « كأن يجتمع حكيمان او ثلاثة فصاعدا ، فيحتاجوا الى الابانة عن الأشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظا اذا ذكر عرف به مسماه ، ليمتاز من غيره ... فكأنهم جاءوا الى واحد من بنى آدم ، فأومأوا اليه وقالوا : « انسان » فأى وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به

---

(١) الخصائص ١/٤٠

هذا الضرب عن المخلوق . وان ارادوا سمة عينه او يده ، اشاروا الى ذلك فقالوا : يد ، عين ، راس ، قدم ... او نحو ذلك . فمتى سمعت اللفظة من هذا عرف معناها .

ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة الى غيرها ، فتقول : الذى اسمه (انسان) فليجعل مكانه : مرد والذى اسمه (راس)فليجعل مكانه : سر .

(مرد ، وسر) بمعنى انسان وراس فى الفارسية ، وعلى هذا بقية الكلام .....

وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراعات الصناع لآلات صنائعهم من الاسماء كالنجار والصائغ ... ولكن لابد لأولها من أن يكون متواضعا بالمشاهدة والايماء .

وهذه النظرية تفسر جانبا من نشأة اللغة ، لكنها لا تفسر اللغة قبل اجتماع هؤلاء الحكماء ، وفى حياة السذج والبسطاء .

ثالثا ــ نظرية المحاكاة :

اى محاكاة اصوات الانسان ، او الحيوان ، او الطبيعة ، حين قلد الانسان الأصوات التى سمعها ، واتخذ منها أسماء يعبر بها عما يصادفه فى حياته :

وذهب الى هذه النظرية ابن جنى قديما ، والانجليزى (وتنى Whitny) حديثا فى القرن التاسع عشر .

وذلك كالتأوه ، والتأفف والقهقهة ، والنحنحة فى تقليد الانسان .

ومثل : الصهيل ، والزئير ، والمواء ، والرغاء ... لأصوات الحيوانات .

ومثل : صرير القلم ، وصليل السيف ، وحفيف الشجر ، وقصف الريح ، وهزيم الرعد ... لأصوات الجمادات والظواهر الطبيعية .

ومثل الأعمال التى يزاولها الانسان : كالقط ، والقد ، والقص ، والجر ، والنجز ، والصب ... (١)

وليست هذه النظرية من اختراع (ماكس مولر Max Muller) (١٨٦٤ م)

---

(١) سر الليال ، للشدياق ص ٢٣

كما اشار بعضهم (١) ، بل عرفها العلامة : ابن جنى (٣٩٥ هـ) ، وذكر أنه نقلها عمن سبقه ، مما يدل على انه كان مذهبا شائعا ومقررا ، يقول (٢) :

وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها ، انما هو من الأصوات المسموعات : كدوى الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبى ، ونحو ذلك ... ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل .

وذكر ابن جنى هذه النظرية ثانية فى فصل بعنوان : « امساس الألفاظ أشباه المعانى » . (٣) اى أن الصوت له قيمة تعبيرية أو معنوية خاصة به .

واشار كثير من علمائنا الى أن للحروف معنى ، وأن هناك صلة بين اللفظ والمعنى ، فحرف (الحاء) يدل على الانبساط والسعة والراحة . وحرف (الغين) يدل على الظلمة والانطباق والخفاء والحزن ، مثل : غيب ، غيم ، غم ، غبن ، غبطة ... (٤)

لكن توضيح النظرية ونقدها يمكن أن ينسب الى (ماكس مولر) ، و (رينان الفرنسى) فى كتابه : (التاريخ العام للغات السامية) ، ومن جاء بعدهم :

فقد أتى رينان بأمثلة كثيرة من مختلف اللغات تؤيد النظرية ، وتبين تشابه كثير من الألفاظ نتيجة المحاكاة .

واطلق المحدثون من الأجانب عليها : (نظرية البو — وو Bow-Waw) واتوا لها بشواهد تؤيدها ، مثل : (مو) بمعنى هرة فى اللغة الصينية، والمصرية القديمة ومثل (Kuckoo) لطائر سمى بالصوت الذى يحدثه .

والاعتراض على هذه النظرية ينصب على أنها جعلت الانسان فى الوضع الثانى بالنسبة للحيوان ومعلما له ، ودافع (جسبرسن) عن هذا بأن الأصوات التى تصدر عن الحيوان وغيره ، انما يقصد منها شىء محدود من الانسان ،

---

(١) نظريات فى اللغة ، لأنيس فريحه ص ١٧

(٢) الخصائص ٤٦/١

(٣) المصدر السابق ٥٤٤/١

(٤) نظريات فى اللغة لفريحه ص ١٧ .

وهو الدلالة على مصدرها ، بينما لا يقصد منها شيء حين صدورها من مصدرها الأصلى (١) .

فالانسان رأى فى التقليد حل مشكلة ، واختار انسب طرق الحل ، وقديما كان الغراب دليلا لابن آدم : « **ليريه كيف يوارى سوأة اخيه** » (٢) وبملاحظة الصلة بين الصوت ومدلوله وبمتابعة التلقى والتقليد ، واستمرار مرير الانسان على ذلك تطورت لغة الانسان شيئا فشيئا ، فأمست ذات دلالات رشيدة .

واخيرا : فالنظرية فسرت بعض كلمات فى لغات مختلفة ، استغلالا لمبدأ حكاية الصوت ، كما انها سبب — بعد ترقى الانسان — فى استغلال العلاقة (البسيكولوجية) اى قرن الأصوات بصورة قائمة فى العقل ، اى انها غطت المعقولات ، بعد المحسوسات ، ومن ثم فهى جديرة بالنظر والاعتبار .

رابعا — نظرية الغريزة الخاصة :

وتعرف هذه النظرية ايضا بنظرية الأصوات التعجبية العاطفية (Interjections) او نظرية (Pooh - Pooh) .

وهذه الغريزة الخاصة زود بها النوع الانسانى ، وبها استطاع كل فرد أن يعبر عن الانفعالات والمدركات بصورة طبيعية وتأثر فطرى ، فى صورة حركات واصوات ، صادرة عن دهشة أو فرح ، أو حزن او الم ، أو دهشة واستغراب او تقزز او تأفف ... فتنقبض الأسارير او تنبسط ، ويضحك او يبكى او يئن ... ولذا تشابهت بعض الألفاظ فى لغات مختلفة مثل : (وى) للتحسر والتلهف فى الساميات ، (وفى الانجليزية Wa-La) (واف) و (Pfui), للتأفف فى العربية والألمانية .

وحينما نشأت اللغة الانسانية الأولى لم يستخدم الانسان هذه الغريزة ، وانقرضت شيئا فشيئا » (٣) .

واعترض على هذه النظرية — مع انها تفسر بعض الألفاظ — بأنها توقعنا فى نظرية الغرائز المعقدة ، وان الأصوات الصادرة عنها فجائية منعزلة عن الكلام الذى يصدر اراديا .

---

(١) فقه اللغة العربية ، ص ٢٢

(٢) المائدة : ٣١

(٣) نشأة اللغة ص ٢٧ ، ونظريات فى اللغة ص ٢٠ ، ودلالة الألفاظ ص ٢٣

ويقول (جسبرسن) : ان الأصوات الناجمة عن تلك الانفعالات ـ كما نشاهد الآن ـ لا ترتبط بمظاهر النشاط اللغوى ، ولكنها نشاط صوتى ، قد تكون بعيدة عن سياق الحديث ، وغير خاضعة للقواعد اللغوية (١) .

خامسا ـ نظرية الأصوات الجماعية :

كما تعرف هذه النظرية بنظرية الاستجابة الصوتية للحركات العضلية ، ويرمز لها (Yo-he-ho) وهى المقاطع الطبيعية التى يتفوه بها الانسان عندما يستعمل اعضاء جسمه فى عمل يدوى ، فيخرج هذه الأصوات عفويا ، لتخفف من حدة العمل وعبئه .

فالمجهود العضلى الشاق ، مع التنفس الشديد ينتج عند تحريك الأوتار الصوتية هذه الأصوات المختلفة بشكل جماعى : مثل : (هيلا هوب هيلا) ، (هوب هيلا ليصا) ، ونلاحظ ذلك كثيرا عندما نشاهد اغانى المجدفين ، ورافعى الأثقال ، والحداء والرقص الايقاعى .. (٢) ، واى عمل جماعى للعمال .. وتفسر هذه النظرية جزءا من نشأة الألفاظ ، ولكن يقال : اين كانت اللغة قبل هذا العمل الجماعى ؟

سادسا ـ اللغة ظاهرة اجتماعية :

وهى نظرية حديثة ، تقضى بأن اللغة كغيرها من الظواهر الاجتماعية نشأت ساذجة كتفكير الساذجين ـ وقتذاك ـ واعتباراتهم وحاجياتهم المعيشية ، لم يعتملها منطق ، ولم يعتورها تفكير (٣) ، ثم تطورت بمرور الزمن ، وتتابع التجارب ، وتعقد العلائق ، وتنوع المشاهد ، وضغط الحاجة ، واختلاف البيئات والأوساط والطبائع ، فادى كل ذلك الى اختلاف اللغات وتنوعها .

وخير دراسة تهدينا الى ذلك ما قام بها الشيخ عبد الله العلايلى فى كتابه : (مقدمة لدرس لغة العرب) وفيها قريب معقول ، وخيال خصيب مقبول ، ادى اليهما طول نظره فى الألفاظ ، وهيامه بالعربية ، وبصره

---

(١) فقه اللغة العربية ص ٢٣

(٢) نظريات فى اللغة ص ٢٠ ، ودلالة الالفاظ ص ٢٦ .

(٣) مقال للدكتور محمد رضوان فى مجلة كلية الآداب الليبية عدد ٤ عام ١٣٩٢ هـ .

اللغوى ، وحسه الصادق ، واتقانه لعدة لغات : فنى قضية التطور اللغوى، يعالج : احادية أصول اللغة ، وثنائيتها ، وثلاثيتها .

واللغات فى رأيه مرت فى ثلاثة أدوار .

الدور الأول : ذو المقطع البسيط ، اى ادنى المقاطع ، مثل (ba) ، وهو الدور الذى ولد المقاطع الأحادية ، التى هى الجدول الهجائى ، والذى أخذت منه كل لغة ما يناسبها . وتخيل الشيخ العلايلى لهذا الجدول انما نشأ من طول نظره فى دلالة الالفاظ فأداه ذلك الى تحديد المعانى الكلية التى صاحبت نشأة الحرف فى السنة الناطقين الأوائل باللغة (فى الدور الأول) ، وفى هذا الجدول : أن (الهمزة) تدل على الجوفية وما هو وعاء للمعنى ، وتدل على الصفة تصير طبعا . و (الباء) تدل على بلوغ المعنى فى الشىء بلوغا تاما . و (التاء) تدل على الاضطراب فى الطبيعة . و (الجيم) تدل على العظم مطلقا . و (الذال) تدل على التفرد . و (الراء) تدل على الملكة وشيوع الوصف . و (العين) تدل على الخلو الباطن ، أو الخلو مطلقا . و (الغين) تدل على كمال المعنى فى الشىء . و (الميم) تدل على الانجماع ... » (١) .

وفى هذا الدور كان كل صوت يدل دلالة بعينها ، مثلا (عو) يدل على الحيوانات الزئيرية ، و (وا) يدل على الصوت المتكرر بحركة الفكين ، وعنه نشأ الفعل (وو) فى العبرية بمعنى (وصل) .

وانسان هذا الدور هو الانسان البدائى الفطرى ، الموغل فى البداوة ، والذى لا يكاد يرتفع عن مستوى النوع ، الذى هو فصيلة من فصائله المشاكلة . والذى لم تتشكل أصواته بطابع غيرها ، بل كانت جارية مجرى الأصوات الاضطرارية المتولدة عن الانفعال — فى بدء هذا الدور — ، ولا تتميز فيها المقاطع ، كالأنين والعنين والأحيح والزحير والهمهمة ، وحين تطورت هذه الأصوات أصبحت ذات أغراض ثابتة ، ومنها تكون الجدول الهجائى .

والدور الثانى : ذو المقطعين ، أى صامتين + مصوتين ، أو مصوت واحد — حين تطورت المقاطع الأحادية الى ثنائية — وهذا الدور نشأ

---

(١) مقدمة ، للشيخ العلايلى ص ١١٠

مصادفة وبمحاكاة الطبيعة فى مختلف أصواتها : فمثلا : (عو) يدل على الحيوان المفترس عند السامى ، و (وا) تدل على الصوت المتكرر بحركة الفكين ، أراد بهما انسان هذا الدور : حيوان يواصل التصويت . وعند الفينيقيين كان نطق (أ) يعنى الثور .

ويطبق نظريته على اللغة العربية على أساس فرض التطور ، فتكون مثلا كلمة : (شجر) مكونة من (ش) بمعنى (سن) أو مطلق نبات ، و (ج) بمعنى جمل وهو يرمز للارتفاع مطلقا ، و (ر) بمعنى رأس . فالمؤلف من الحروف هو (نبات مرتفع له رأس) ، وهو تماما بمعنى الشجر. وكذلك كلمة (سمك) تحل الى (س) ومعناها الدعامة وهو يرمز الى مطلق القوى ، و (م) ومعناه : المياه . و (ك) ومعناه : كف ، وهو يرمز الى مطلق التبسيط فى صغر ، والمعنى المؤلف هو : (كف الماء القوى) ، وهو تصور صحيح عن السمك .

فالمحاكاة فى هذا الدور اكسبت انسانها اكثر المقاطع الثنائية ، وبخاصة اذا كانت ناشئة عن ضم بعض المقاطع الأحادية التى يحتمها التعبير . وساق مثلا كلمة (عبى) ، لأن (العين) تدل على الحيوان الزئيرى ، و (الباء) تدل على البيت ، وكان المعنى الأول : (حيوان البيت القوى) الذى هو كناية عن الرجل . ثم اشتق من عبى (العباية) التى هى لباس الرجل بعد أطوار الترقى .

الدور الثالث : ويشمل هذا الدور الانسان من العصر الحجرى المهذب ، الى ان بلغ أوج رقيه ونضجه ... ولطوله ، قسمه الشيخ العلايلى الى خمس حلقـــات .

الحلقة الأولى : ـــ من العصر الحجرى حتى البرونزى ، وفيها استعمل انسانها : المفردات ذات المقطع الواحد ، وذات المقطعين من المعـــلات ، وذات المقاطع التى انتهت وكوحدة فى العربية .

والحلقة الثانية : ـــ فى العصر الحديدى ، وعرف انسانها الكتابة ، وكثرت عنده المفردات وتركيبت الجمل وعرف الألفاظ ذات الدلالة المعنوية .

وفى الحلقة الثالثة : ـــ فرق فيها بين الاسم والفعل ، والفعل والحرف

المهمل ، واتقن الكتابة ، وعرفه بداية الاشتقاق ، وجعل الوسط موطن الزيادة .

وفى الحلقة الرابعة : ــ تم نضجه اللغوى ، ووصل الى درجة عالية فى الاشتقاق والتقليب للالفاظ ، وتكفلت هذه الحلقة بتوفير كل عناصر القوة والحيوية للغة الراقية كالعربية .

وفى الحلقة الخامسة : ــ اكتملت اللغة الحية ، فلم تعد بحاجة لزيادة مستزيد تضمن بقاءها وغناها وثراها (١) .

ومن شاء مزيدا من البحث والاستفادة ، فليراجع المقدمة للشيخ العلايلى ، ودراسة قيمة عليها للدكتور عبد الصبور شاهين بداية عام ١٣٩٩ هـ (فى التطور اللغوى) .

وما كتبناه فى مجلة الأزهر فى اعداد متوالية عن الثنائية فى أصول لغتنا سنة ١٩٧٩ م (٢) .

سابعا ــ نظرية جسبرسن :

ذهب فريق من العلماء المحدثين ، وعلى راسهم العالم اللغوى (جسبرسن) الى أن النظريات السابقة لا تعطى الحقيقة ــ التى ننشدها ــ كاملة ، والى أن دراسة نشأة اللغة الانسانية الأولى يجب ان تقوم على منهج علمى ، واسس سليمة ، تعطى بعدئذ حقائق علمية يطمئن اليها الباحث . ومن ثم طالب جسبرسن :

١ ــ بدراسة وافية للغة الطفل .

٢ ــ وبدراسة لغات القبائل البدائية .

٣ ــ ودراسة تاريخية للتطور اللغوى .

(أ) اما دراسة لغة الطفل ونموها :

فقد اهتم العلماء بمراحل نمو الطفل ، منذ يصبح فى بطن أمه جنينا ،

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٠ وما بعدها ، بتصرف .

(٢) وانظر كتاب : « أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية » للمؤلف ــ نشر مكتبة وهبة .

ووجدوا أن مراحل نموه جنينا هى نفس مراحله بعد مولده ، فقاسوا مراحل نمو لغته على مراحل نمو جسده .

وقسم (جسبرسن) النمو اللغوى لدى الطفل الى :

مرحلة الصياح ، ومرحلة البأباة ، ومرحلة الكلام .

وقسم المرحلة الأخيرة الى فترة اللغة الصغيرة الخاصة بالطفل ، وفترة اللغة المشتركة ، أو لغة الجماعة ، وفى هذه الفترة يكون خضوع الطفل للمجتمع ، وتأثره به آخذا فى الازدياد شيئا فشيئا » (١)

ومرحلة صياح الطفل هذه ليس فيها أصوات مميزة كما يظن ، وانما هى أصوات تصدر نتيجة ضغط الهواء الداخل الى الرئتين لأول مرة .

ومرحلة البأباة : نتيجة نطقه للباء ، وترديدها تبعا لتقليد من حوله ، وتشجيعهم له ، ثم يكرر مقاطع أخرى مقلدا .

ومرحلة الكلام أو اللغة عنده ، تبدأ حين يجيد نطق مقاطع معينة بعد الترديد وطول التقليد ، مثل : ماما ، بابا ، مما ، ننا ، نونو ... الخ .

ومن أطرف الدراسات الحديثة — على الجنين فى بطن أمه — ما جاء فى التقرير العلمى للابحاث التى نوقشت فى المؤتمر العالمى السادس للطب النفسى ، الذى عقد فى مدينة (هونولولو بأمريكا) وتلخص النتائج فيما يلى :

لقد أصبح من الثابت علميا أن الانسان يبدأ حياته منذ اللحظة التى يتشكل فيها الجنين ، أى قبل أن يولد .

وهذه الحياة جسدية ، وهى فى نفس الوقت نفسية ، لأنه يتأثر — وهو جنين — بالعلاقات السائدة بين أبويه ، فتتوافق حركاته فى بطن أمه ان كان سعيدا ، والعكس بالعكس .

ويستطيع الجنين تذوق الموسيقى ، وله قدرة على التقاط الأصوات — بجسمه كله — والتمييز بينها .

وعن طريق استعمال بعض السماعات الصوتية الخاصة على بطن الأم ، يمكن الاتصال بالجنين ، والتفاهم معه ، وتهدئة أعصابه بالموسيقى ،

---

(١) اللغة والمجتمع ، د . محمود السعران ص ٤١

والتأكيد على بعض الألفاظ ــ والمفاهيم ، والأنغام ، التى نرغب فى ترسيبها فى نفسه ، مما يسهل عليه مستقبلا : تعلم اللغـــات ، وتنمية المواهب الموسيقية ، واعتناق بعض المفاهيم الأخلاقية والسلوكية المستحبة .

وينصح التقرير ــ فى شأن علم نفس الجنين ــ ببعد الأم عن الضوضاء، والشحناء ، والعصبية ، والأصوات مهما كان نوعها وحدتها ونبرتها ، اذ يترك ذلك اثر بصماته على جهازه العصبى . وعلى الجملة يجب البعد عن كل ما من شأنه أن يؤثر على نفسية الجنين ، ويلعب دورا فى صنع مستقبله .

ويخلص التقرير الى أن هذه التجارب العلمية الواقعية فتحت أمامنا آفاقا لا تقف عند حد ، وجعلتنا نعتنق القول : « ان اجنة اليوم هم رجال المستقبل » بعد أن بقينا مدة طويلة نقول : « ان أطفال اليوم هم رجـــال المستقبل » (١) .

ومن المعقول والمقبول أن الانسان البدائى قد مر بمثل أطوار الطفل فى لغته ــ فجوز العلماء لأنفسهم أن يقيسوا ذاك على هذا ــ على أنـــه تدرج ببط وترقى ، بعد أن نضج مخه ، وتحكم فى ملكاته ، وهيأت له ظروفه الاجتماعية أن يصوغ انفعالاته وان يعبر عن حاجياته فى مقاطع وكلمات وكلام وبذلك تعين دراسة لغة الطفل على معرفة اللغة الأولى ونشأتها .

والدكتور ابراهيم أنيس يرى فى قياسهم بعض الغلو ، لاختلاف الظروف التى يعيشها الطفل فى العصور الحديثة ــ وما عاناه الطفل الأول من ظروف قاسية فى مراحله الأولى (٢) . ولكن هذا الاعتراض لا ينفى تقدم البحث ، واستخلاص البساطة والمحاكاة والتدرج فى اللغة ، التى هى كائن حى ، كتطور الحياة والأحياء .

(ب) دراسة اللغة فى الأمم البدائية :

اعتبر الباحثون أن الانسان البدائى المعاصر ، شبيه بالانسان الأول ، الموغل فى القدم ، وتلمسوا دراسة لغات الأمم البدائية ــ فى أصواتها ،

---

(١) المجلة العربية السعودية ، عدد ١ ص ٣ ــ مقال للدكتور رفيق الفر

(٢) دلالة الألفاظ ص ٢٨

وحروفها وكلماتها وتركيبها ، لالقاء الضوء على ما كانت عليه نشأة اللغة الانسانية الأولى،علهم ينتزعوا شيئا من صمت التاريخ فى غياهب العصور السحيقة والموغلة فى القدم ، وبعد دراسة ومقارنات مضنية ، وجدوا تشابها فى الأصوات ، ومقاطع الكلمات ، وتراكيب الجمل ، بين المجموعات اللغوية والمتشابهة ... مما القى ضوءا على ما كانت عليه لغة الانسان فى العصور السحيقة ، بحكم تشابه البداوة والنشأة ، والطريق الذى سلكته متدرجة فيه ، وقارنوها بلغات الأمم المتمدينة وهذه الخطوة فى البحث والدراسة بعد دراسة لغة الطفل ، تعتبر تدرجا فى طريق البحث المنهجى ، ويعترض الدكتور انيس بأن « آلافا من السنين قد مرت على الانسان قبل أن يبلغ هذا المستوى البدائى من اللغة : اى اننا فى هذه المرحلة لم نبلغ ما كنا نأمله من ادراك صورة لبداية النشاط اللغوى لدى الانسان الأول » (١) . الا أن الاستنتاجات الواعية لهذه الخطوة من الدراسة الجادة للغة البدائيين (٢) ، تلقى ضوءا على أولية اللغة الانسانية وتطور بدايتها استنباطا وتطبيقا وقياسا للغائب على الشاهد ، حتى نملك أدلة الحقيقة واليقين .

(ج) جانب الدراسة التاريخية للتطور اللغوى :

وجه العلماء جهودهم فى هذا الميدان ، يعقدون المقارنات ، ليصلوا الى قوانين وقواعد التطور اللغوى ، بمقارنة حال لغة من فصيلة معينة فى عصر من العصور بما قبله أى أن الدراسات بدأت تصاعدية لعصور اللغة ، فى مفرداتها ونصوصها ، ومستنداتها التاريخية ... بقصد المقارنة بماضى هذه اللغة ،ومقارنة اللهجة الحديثة بما كان سائدا من قبل ، فاذا تجمعت لهم عن طريق تلك المقارنة التاريخية قواعد عامة للتطور اللغوى ، أمكن تطبيق تلك القواعد على عصور ما قبل التاريخ (٣) ، لتلقى الضوء على نشأة اللغة الانسانية الأولى .

وبرز من العلماء فى هذه الدراسة (جسبرسن) فى كتابه : (اللغة

---

(١) فى علم اللغة العام ص ٧٦ ، نقلا عن : دلالة الألفاظ ص ٢٨ وما بعدها .

(٢) فقه اللغة العربية د . نجا ١/٤٥ .

(٣) دلالة الألفاظ ص ٣٢

وطبيعتها) ، و (ميه) فى (المنهج المقارن فى علم اللغة التاريخى) . ولم تبلغ الدراسات فى هذا الجانب كل آمالها ، ولكنها خطوات على الطريق .

غير أن نظرية (جسبرسن) برغم وجاهتها لم تسلم من النقد :

لأن الطفل لا يعيد نشأة اللغة ، اذ هى مكتسبة لا وراثية ، فلو وضعنا طفلا عربيا مثلا — فى بيئة يابانية ، لنشأ يابانى اللغة .

وايضا فان أعضاء نطقة ليست أساسا للنطق ، ، بل هى فى جوهرها لأغراض جسمية اخرى .

والكلمات أو المقاطع التى يبدأ بها الطفل فى أول امره ، لا ينطبق عليها اسم لغة ، وانما هى أصوات بدائية لأغراض عديدة عند الطفل يحس بها ، ونحن نسبغ على هذه الأصوات معانى ، وقد يقرنها الطفل — بدوره بعدئذ — بمعان وحالات واستجابات . وحين يبين عن هذه الحالات بكلمات وجمل واضحة ، فان المجتمع هو الذى اكسبه اياها ، فالطفل مقلد لا مبتكر .

وايضا اذا قلنا بدراسة اللغات القديمة : (عندما حلت رموزها ، مثل : السومرية ، والبابلية ، والمصرية ، والحيثية ...) أو دراسة اللغات البدائية المتأخرة ، كلغات الهنود الحمر ، والزنوج ، واهل استراليا الاصليين . اذا قلنا بدراسة هذه وتلك — لأن فيهما عناصر « طبق الأصل » للغة الانسان القديمة ، وفى دراستهما ما قد يجلو الغموض الذى يكتنف أصل اللغة ، بسبب أن هذه اللغات قديمة وبدائية — يجىء الاعتراض بأن هذه اللغات ليست قديمة ولا بدائية ، وانما هى حديثة نسبة الى عمر اللغة ، ووراء كل لغة تاريخا مديدا ، كما انها ليست فى صرفها ونحوها واساليبها بدائية ، ووراءها عشرات الالوف من السنين كانت فيه عرضة للتغير والتطور ..

واذن فاعتبار أن البساطة فيها مميز ويقرب — بالتالى — الى الأصل وهم وظنون .

ونلاحظ أن بقايا التعقيد وعدم المنطق لا تزال ظاهرة فى لغاتنا الحية .

خذ التأنيث مثلا لذلك عند الانسان القديم ففى العربية نجد المؤنث مغايرا للمذكر فى نحو : (رجل ، وخروف ، وحصان : إلى امراة ، ونعجة وفرس) .

وبعد زمن بدأ التانيث الصرفى يجد مدخلا الى اللغة ، واصبحنا نقول : لطيف ، وكبير ، ومؤمن : ونقابله بمؤنثه : لطيفة ، وكبيرة ، ومؤمنة .

ومثلا آخر على فقد المنطق فى اللغة : تذكير العدد مع المؤنث ، وتأنيثه مع المذكر ، فنقول : سبع ليال وثمانية أيام ، وثلاث نساء وثلاثة رجال . وبمرور الأيام قالت العامة : ثلاث نسوان وثلاث رجال . ، وسجلت العامية : تلات نسوان وتلات رجاله .

والخلاصة : « ان دراسة اللغات القديمة والبدائية اثبتت انها ليست قديمة جدا كما توهمنا ، وليست بدائية كما احببناها أن تكون ، فلم تسعفنا فى الوصول الى معرفة الأصل ، بل اننا لا نزال فى الظلام » (١) .

لكننا لن نذهب هذا المذهب فى غلق الباب تماما : والتسليم بأننا مازلنا فى الظلام ، لأن تكاتف العلوم الأخرى ، وارساء اسسها اليوم فى ضوء باهر تجعلنا على الطريق السوى ، حين نأخذ بالتطور والتدرج ، وفى قياس الغائب على الحاضر أو بقايا الحاضر الذى لا ينفك عن نسبة كبيرة باقية من أصله فى حاضره مهما اعتراه التبدل والتغيير . فالسين قريبة النطق من الثاء ، والتاء قريبة منهما ... وحتى لو فتشنا عن نشأة اللغة فى نشأة الأسطورة وتطورها ، لأنهما فى مبدئهما من نسيج واحد ، ودوافعهما الحياتية من معدن واحد فان العقل يصدق ويقبل أن التخيل فى هذه النظرة لم يبدأ من فراغ ، ورائحة الأصول باقية مهما كان التغيير واضحا وقويا ، فالنظرية تدنينا من المعرفة وتأخذ من النظريات السابقة بأطراف ، وتلقى على الحل اضواء فى الأخذ بالمنهج العلمى .

ثامنا ــ نظرية (جوزيف فندريس J. Vendres) :

يرى العلامة (جوزيف فندريس) أن اللغة كانت عند السلف البعيد ــ الذى لم يكن مخه صالحا للتفكير ــ انفعالية محضة ، ولعلها كانت فى الأصل مجرد غناء ينظم بوزنه حركة المشى أو العمل اليدوى ، او صيحة كصيحة الحيوان تعبر عن الألم أو الفرح ، وتكشف عن خوف من قوى ، أو رغبة فى الغذاء .

---

(١) نظريات فى اللغة ص ٢٢ ــ ٢٦ بتصرف .

: بعد ذلك لعل الصيحة اعتبرت بعد أن زودت بقيمة رمزية كأنها قابلة لأن يكررها آخرون .

ولعل الانسان قد وجد فى متناول يده هذا المسلك المريح ، فاستعمله للاتصال ببنى جنسه ، أولاثارتهم الى عمل ما ، أو لمنعهم منه .

ولابد أن اللغة قبل أن تكون وسيلة للتفكير كانت — فى الواقع — وسيلة للفعل ، وواحدة من أنجع الوسائل التى مكن منها الانسان .

وما أن استيقظ فى ذهن الانسان شعوره بالعلامة ، حتى راح يوسع من شأن هذا الاختراع العجيب .

وكأن تقدم الجهاز الصوتى يسير بنفس الخطى مع تقدم المخ .

وكأن تثبيت اللغة فى داخل الحشود الانسانية الأولى يسير على نفس القوانين التى تحكم كل مجتمع ، وبوجه خاص كأن أعضاء كل جماعة يلتزمون فى احتفالاتهم الجماعية ، نفس المظاهرات الصوتية أو الغنائية .

وهكذا كانت عناصر الصياح أو الغناء تصبح مزودة بقيمة رمزية يستبقيها كل فرد فى نفسه لاستعماله الشخصى ، ثم قليلا قليلا ، وبفضل الاتساع المتزايد فى التبادل الاجتماعى تكون أخيرا هذا الجهاز المعقد الذى لا يجارى فى ثرائه ، ليكون وسيلة للتعبير عن العواطف والأفكار » (١) .

فقد تخيل (فندريس) اللغة عند الانسان الأول انفعالية محضة وغناء ينظم حركة ، وصيحة تعبر عن ألم أو فرح ، وكاشفة عن حاجة ، ثم زودت بقيمة رمزية عبر بها عن شى فارتضاها وكررها بنو جنسه كوسيلة للتفاهم ناجعة ، يقود كل ذلك تطور مخه ، وتطور جهازه النطقى ، وتطور الحياة الاجتماعية فيما حوله وهو تخيل خصب مقبول ، وتدرج طبيعى ، يتماشى مع سنة التطور فى الحياة والأحياء .

* * *

---

(١) اللغة ، لفندريس ص ٣٧ — ٣٩ .

تعقيـــب :

يتبين لنا من استعراض ما سبق أن :

● التفكير فى « المشكلة » اتسم ــ كما راينا أحيانا بالافتعال ، وافتراض أمور بعيدة ، كما اتسم أحيانا أخرى بالبساطة حيال هذه الظاهرة المعقدة ولكنه فى جملته يدل على اجتهاد صادق فى البحث ، وميل الى التعليل والتحليل وصبر فى تتبع التطور اللغوى .

● كما عكس لنا تفكير القدماء ، وفضل علمائنا فى البحث والتفكير ، والابتكار والتمييز والترجيح .

● واسهمت كل نظرية فى اثراء البحث ، والقاء ضوء على المشـــكلة وقدمت جزءا من الحل ، فاستفاد اللاحق من السابق ، وحاول تجنب الأخطاء .

● ولما للغة من أثر فى حياة الانسان ، ارتبط بحث أصلها ــ كظـــاهرة مثيرة ــ بخلق الانسان ، وصورته البديعة ، وادى ذلك الى القول بأنها وحى والهام ، وهبة من الخالق المبدع الذى اتقن كل شىء خلقه .

ومع أن البحث بدأ (ميتافيزيقيا) الا انه عرف ــ بعدئذ ــ طريق البحث المنهجى ، واتسع نطاقه ، وان بدأ بسيطا ساذجا كالقول بالاصطلاح حيال ظاهرة اللغة .

● وبرزت نظرية (الشذوذيين) الذين يرون أن اللغة لا تسير وفق قواعد محددة ، وليست محكومة بقانون أو قاعدة . وترتب على ذلك بروز نظرية (القياسيين) ، الذين يرون عكس ذلك تماما ، فاتجهوا اتجـــاها فلسفيا فى البحث ، لربط الســـبب بالمسبب ، واستخلاص النتائج من المقدمات ، ووضع الضوابط والقواعد على أسس منهجية .

● وادى التخلى عن نظرية الالهام والوحى الى القول :

بأن اللغة مجموعة من الحقائق تحكمها قواعد عامة ، ووجود قانون أعلى يحكم الظواهر الكونية ، ومنها اللغة .. والاتجاه الى الدراســـة الموضوعية للغة وتوسيع نطاق البحث فى جميع اللغات ، أو المعروفة منها .

والقول بنظرية الفصائل اللغوية ، كما هو الشأن فى فصائل النبات والحيوان .

● ونظرية القول بالغرائز جاءت فجائية ، منعزلة عن التكلم والكلام الارادى ، والأصوات التى تصدر عنها ، انما تأتى حين العجز عن الكلام — وارتباطها بغريزة انقرضت — لاسند له ، فضلا عن أنه يعقد البحث لتعقد نظريات الغرائز .

● نظرية المحاكاة تفسر جزءا كبيرا من المشكلة ، ولها سند من الواقع وحتى الآن ، عند حكاية الأصوات ، والتسمية ، والوضع اللغوى .

● الذى يتطور عند (فندريس) هو مخ الانسان وجهازه النطقى ، وعند الشيخ العلايلى ، هو : مخه ، وتطور الحياة الاجتماعية ، وترقيها فيما حوله ، وبذلك ترتبط عملية اللغة بعلوم أخرى .

● بنى المحدثون نظرتهم على أسس علمية منهجية ، واستفادوا ممن سبق وما جد حولهم من بحوث فى مجال العلوم الأخرى .

● ومن الطريف أن بعض العلماء — ومنهم القاضى أبو بكر (١) يحاولون التوفيق بين مذهبى الالهام والتوقيف وبين الاصطلاح ، ذاهبين الى أن كليهما ممكن وقوعه ، فقوله تعالى : « **وعلم آدم الأسماء كلها** » ، يعنى أن التعليم قد حصل بالالهام ، أى بالقوة : لقد وضع الله تعالى فى الانسان ملكة الخلق ، ثم تركه يخلق على هواه .

واذا سلمنا أن الأسماء قد أعطيت لآدم بالتوقيف ، فان الذين جاءوا بعده لم يوقفوا عليها ، لقد اصطلح أولاده من بعده على لغاتهم .

والدليل على ذلك ، قوله تعالى : « **وما أرسلنا من رسول الا بلسان** قومه » (٢) . ولعل هذه المحاولة ترضى نزعة النصيين والعقليين على السواء .

* * *

---

(١) الاحكام فى أصول الأحكام ، للآمدى ج ١ ، القسم الثانى .
(٢) ابراهيم : ٤